تاريخ استقبال المقال: 11 / 09 /2016 تاريخ قبول نشر المقال:22 / 01 /2017 تاريخ نشر المقال: 2017/06/01

ازدواج اللغة العربية بين الفصحى و العامية وتداعياته على النسيج الاجتماعي

د.يوسف العايب– جامعة الشهيد حمه لخضر –الوادي – الجزائر

youcef-laib@univ-eloued.dz

ملخص:

يتناول هذا البحث ظـاهرة الازدواجية اللغويـة و يوضح مفهومـها ومفهوم الثنـــائية اللغويـة موضحـا خطرها على اللغة العربية الفصحى و سعيها لمغالبتها والانتصـار عليها و القضـاء عليها لتحل محلهـا و تقضي على مكانتها . كمـا تسعى هذه الدراسة أيضا إلى تبيين ما للازدواجية اللغوية من آثار سلبية على اللغة و الفـرد و المجتمع حين تغدو عنوانا للصراع الاجتماعي داخل المجتمـع ، و حائـلا دون وحدته و تشتيتا لكل جهود رامية لإحلال وئـام بين طبقـاته و أفراده ، فضلا عن كونها سببا مباشـرا في قتل كل إبداع فكري لدى الفرد و إنتاج علمي لـدى الأمـة . وهو مـا يدعـو إلى التصدي لهذه الظـاهرة بالعمل على حمايـة اللغة العربية الفصحـى من أخطارها الكثيرة و اتخاذ الإجـراءات الكفيلة بدعمها والاهتمام به .

الكلمات المفتاحية: اللغة ، الازدواح اللغوي ، المجتمع

Linguistic Interference (between Classical and Demostic Arabic)

and its Impact on the Social Structure

Abstract :

This research paper studies the phenomenon of bilingualism. It explains its meaning showing its threat to classical Arabic. It clarifies how bilingualism strives to defeat Arabic and replace it and to destroy its status. This study also aims at clarifying the negative effects of bilingualism not only on language but also on individuals and society as well when the phenomenon becomes a source of social conflict and an obstacle to unity. Bilingualism hinders all the efforts trying to restore harmony among social classes and between individuals. Moreover, bilingualism inhibits intellectual creativity and scientific research. All this incites us to resist the phenomenon of bilingualism by protecting classical Arabic from its dangers and taking all measures for supporting Arabic and giving it necessary attention and interest.

Keywords: **Linguistic interference**, **Language , Society**

مقدمة:

اللغة ظاهرة من ظواهر الحياة وقانون من قوانين المجتمع ، و هي إلى جانب ذلك ابتكار كبير من أهم الابتكارات التي توصّل إليها الإنسان في هذه الحياة .كيف لا وهي تلك الأداة التي تتميز بكثير من الإحكام و الإتقان و الانسجام ، ووسيلة من أهم وسائل التفاهم و التواصل بين الأفراد و الجماعات ؟ ولأنها ظاهرة من ظواهر الحياة و قانون من قوانين المجتمع فإنها تتبدل و تتغير و تتشكل تبعا لتغير الأزمنة وتطور المجتمعات، " و ليست أقيسة اللغة إلاّ استنباطا لما يجري فيه من ألفاظ و صيغ ، فاللغة هي الأصل و القياس فيها هو الفرع، وهو ظلّها الناشئ عنها يمتدّ إذا امتددت ، ويميل معها حيث تميل " [1]

واللغة على هذا الأساس هي سبيل تداول الأفكار و تبادلها ، إذ تنقلها من فرد إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى " و إذا كان التفكير الفردي يخضع للمجتمع و يتأثر به فإن للغة دخلا كبيرا في هذا الخضوع و التأثير ،ومن أهم مزايا اللغة قدرتها على أداء المعاني وتيسير تبادلها ،وفضل لغة على أخرى يرجع في قسط كبير إلى اتساع تداولها و كثرة المتخاطبين بها "[2] .

ولأن اللغة ظاهرة شائكة متعددة الأطراف و متشعبة النواحي، فإن ذلك كان مدعاة لظهور ألوان شتى من البحث و النظر و الدراسة لهذا الكائن الاجتماعي، إذ " عرض لها علماء وظائف الأعضاء ليعرفوا كيف تؤدى ، وبيّنوا أعضاء النطق والصوت و رسموا في اختصار الجهاز العضوي للغة ، وعالجها علماء الاجتماع مبينين نشأتها وتطورها و مقارنين بين اللغات البدائية و اللغات المتحضرة ،معلنين أن اللغة ظاهرة اجتماعية تخضع لما تخضع له الظواهر الاجتماعية من عوامل ومؤثرات، ونظر إلى اللغة أخيرا على أنها جزء من التاريخ يسجل الماضي و يحكي الأحداث، بل هي نفسها قطعة تاريخية متحركة يجب درسها و بحث معالمها "[3] .

ونخلص مما سبق إلى اعتبار اللغة وسيلة للتعبير عما يدور في خلجات النفوس الإنسانية من أفكار و خواطر ،و هي خير أداة للتفاهم و التواصل بين بني البشر حين تنقل تلك الأفكار من العالم الداخلي إلى العالم الخارجي، من عالم الحس إلى عالم الإدراك الخارجي ، وهي فضلا عن ذلك كلّه كائن حيّ ينمو و يتطور ، وينجم عن هذا النمو و التطور الذاتي للّغة ارتقاء لغوي تدريجي يساير الارتقاء العقلي و الحضاري. ذلك أن اللغة " لم تحتفظ في تطورها و ارتقائها بالأصل الذي وجدت به ، بل نجدها دائمة التفرع و التشعّب إلى لهجات و لغات مختلفة ، كما أن هذا الارتقاء ناتج أيضا عن تطور في أعضاء النطق الإنسانية إلى جانب الاحتكاك الحتمي بين اللغات المختلفة "[4]،وقد أدى ذلك كله إلى ظهور أنماط كلامية متعددة ومختلفة في اللغة الواحدة و لدى الفرد الواحد و داخل المجتمع الواحد ، وهي أنماط تختلف قليلا عن اللغة الأصل و لكنها تدور في فلكها و لا تشذّ كثيرا عن اشتقاقاتها ، تتفق معها في خصائص و سمات معينة و تختلف عنها في أخرى ، وهو ما "جعل الفرد الواحد في المجتمع يعرف نوعين مختلفين للغته الأم : النوع الأول هو اللغة الأصل :العالية أو الراقية التي تستخدم في التعليم وفي الكتابة و في المعاملات الرسمية ،وهي اللغة الفصيحة أو الرسمية ، أما النوع الثاني فهو الجانب المتطور للغة الذي يمثل البعد عن اللغة الأم ويستخدمه أفراد المجتمع و طبقاته المختلفة في الاستعمال اليومي ،وهو ما يطلق

عليه اسم اللغة العامية أو الدارجــة أو المحكية أو اللهجــة المحلية و غير ذلك من الأسماء "[5] بشكل نصبح معه أمام نمطين مختلفين للغة الواحدة لكن أصلهما واحد : نعني بهما اللغة العربية الفصحى (الفصيحة) و اللغة العامية التي تعد بناء على ما تقدم ليست " بدعا في تطور اللغات بل هي مثل جديد يدل على أن اللغة ماهي سوى مظهر من مظاهر حياة الشعوب ، والذي يتتبع تاريخ العربية الفصحى يستطيع أن يدرك أنها كانت تتغير و تتطور دائما في ألفاظها وأساليب تعبيرها حتى بعد أن جاء الإسلام و نزل القرآن الكريم بلغة قريش ، وخلع عليها نوعا من الثبات جعل تطورها محدودا "[6]

و المقصود باللغة العربية العامية ما اعتادت ألسنة الناس على التواصل به في البيوت و الأسواق و الشوارع و الورشات و المصانع و الحقول ، و نحو ذلك من التجمعات الشعبية و الاجتماعية ، أي ذلك الحديث اليومي الذي يجري بين الأفراد و يكون موضوعه التعاون و التنسيق في معاملات البيع و الشراء و الأخذ و العطاء في جميع أمور الحياة ،وعلى الرغم من كون ألفاظ هذه المعاملات و هذا الحديث عربية في معظمها إلا أننا نجد فيه عددا غير قليل من التحريف الصوتي و التحوير اللفظي الذي يبعده قليلا أو كثيرا عن أصولها العربية الفصيحة ، فضلا عن ذلك الاختلاف الكبير الحاصل في الغالب بين المجتمعات العربية في استعمال العامية ، إذ نجد أن لكل مجتمع من تلك المجتمعات عاميته التي تختلف عن عاميات باقي المجتمعات العربية اختلافا كثيرا أو قليلا ، ويعظم هذا الأمر حين يجد هذا الاختلاف طريقا له واضحا و جليا بين إقليم و آخر في القطر العربي الواحد .

أما العربية الفصحى فهي اللسان الذي يشترك فيه كل الناطقين به في كل زمان و مكان ، نزل بها القرآن الكريم و تكلم بها رسول الله الكريم –ص– هي لسان المسلمين و لسان العرب الوحيد الذي يعدّ من أوثق العرى الرابطة بين أبناء العروبة قديما و حديثا، يتكلمون به و يكتبون به و يتفاهمون و يتواصلون به دون عناء و تكلّف ، و فضلا عن ذلك كلّه فهو الذي تؤدّى به شعائر الإسلام وعباداته و أكبر دعائم الوحدة العربية الشاملة و أهم أسباب رسوخ الأخوّة الشاملة بين جميع المسلمين ممن يتكلم العربية عربيا كان أو غير عربي .

ولأن اللغة العربية الفصيحة هي لغة القرآن الكريم فقد كان لاتصالها به أثران :[7] الأول : أن اللغة العربية احتفظت بصورة تكاد تكون مستقرة تزيد عن ثلاثة عشر قرنا . و الأثر الثاني :أن اللغة العربية منذ أن استقرت فقدت كثيرا من المرونة الضرورية لتطور اللغات،ولا سيما فيما يتصل بالحياة اليومية و المعاملات ،فنشأ عن ذلك شيء من الانفصال بين لغة الثقافة و الأدب و الفكر و بين لغة الأسواق و المعاملات اليومية وما إليها ، وما زال هذا الانفصال يتزايد كلما جدّ في الحياة ظرف يحتاج إلى الأداء و التعبير و الإفصاح عنها بين الناس ، ومازال يتغير و يتبدل تبعا لمعطيات الحياة الجديدة و ظروفها لأن اللغة الفصحى قنعت بأن تكون أداة للتعبير الفكري و العلمي، وكانت القداسة التي خلعها عليها القرآن الكريم من أقوى أسباب شدة اتصالها بالدراسة العقلية و قلة قبولها للتطور الذي يبعدها عن صورتها الأولى ، أي الصورة التي نزل بها القرآن الكريم .

ومع ذلك فإن الانفصال بين العربية الفصحى و العربية العامية لم " يكن مثل ذلك البعد بين لاتينية أمس و إيطالية اليوم ،لأن الأمم العربية لم تحط بها الظروف التي أحاطت بأمم أوروبا، فلم يفرّقها

طوفان من اللغات الأجنبية كما أغرق اللاتينية و الإغريقية طوفان الأمم الجرمانية و السلافية ،ومهما يكن من أمر فإن من الواضح أن الاتجاه واحد في نوعه في الحالين ،و إذا استمر الأمر كان من المحتوم أن تصير اللغة العربية الفصحى لغة الكتاب ،على حين يزيد تطور العامية مع الحياة و تزداد تبعا لذلك شقة الخلاف بينها و بين الفصحى التي تصبح فيما بعد في حكم اللغات القديمة (الكلاسيكية)"[8]. و هو أمر و إن كان محتوما فإنه يشكل خطرا كبيرا على العربية الفصحى لأن العرب اليوم لا يتكلمون لغة عربية مشتركة، لأنهم لا يتكلمون الفصحى ، فالعامية هي الدارجة على الألسن والمستعملة في جميع الحوارات و في جميع قطاعات الحياة ، بل إن العامية ذاتها ليست واحدة بل عاميات مختلفة ومتعددة بتعدد الأقطار العربية بل بتعدد الأقاليم داخل القطر العربي الواحد إلى درجة يتعذّر معها فهم العربي لبني جنسه من داخل القطر الواحد.

و صفوة القول– بشيء من التسامح–أن الفرد العربي اليوم و الحال هذه أنه يعرف لغتين مختلفتين لكن أصلهما واحد[9] . وإضافة إلى المشكلة التي بيّنا حدودها فيما سبق فإن احتكاك اللغة بغيرها من اللغات الأجنبية الأخرى قد يؤثر عليها بالسلب أو بالإيجاب " و يفرض عليها تغيرا معينا يقاس بمقدار ما اقتبست من صفات جديدة " [10].

كما قد تسود في المجتمع أكثر من لغة واحدة لظروف سياسية أو اجتماعية أو عقائدية أو عرقية ،كما قد يتعلم الفرد أكثر من لغة واحدة غير لغته الأصل فنصبح حينها " أمام ظاهرتين لغويتين مختلفتين : الأولى معرفة لغتين من أصل واحد " اللغة الأم إلى جانب لهجة محلية " و الثانية :معرفة لغتين مختلفتي الأصول كالعربية إلى جانب الإنجليزية مثلا ،وقد ترتّب على معرفة اللغات بهذا الشكل اختلاف العلماء في تحديد مفهوم دقيق لكل ظاهرة من هاتين الظاهرتين "[11]

إن الاختلاف في استعمال اللغة عند الفرد أو داخل المجتمع يقودنا حتما إلى الحديث عن الازدواجية اللغوية و الثنائية اللغوية ، ومن هنا جاء الاهتمام بأمر اللغة " لا بصفتها لغة قوم معينين فحسب كما كان يغلب على الدرس اللغوي القديم ،و إنما بصفتها لغة إنسانية عامة أو لغة عالمية أيضا "[12]، وهو ما فسح المجال أمام الدارسين للنظر فيها على أساس أنها أداة تمكّن من احتواء مجموعة كبيرة من المعارف الأخرى، " فتولّد عنها ما يعرف بالتطبيق اللغوي الذي تفرّع إلى علوم عديدة مرتبطة باللغة من نحو علم اللغة الاجتماعي ،وعلم اللغة النفسي و علم اللغة الإعلامي ، وعلم اللغة السياسي ، وهكذا ..."[13]

و مشكلة الازدواجية اللغوية واحدة من أهم القضايا التي يطرحها علم اللغة الاجتماعي بوصفه فرعا من فروع الدراسة الكثيرة المرتبطة باللغة و بعلومها . و على اعتبار أنها القضية الأكثر مساسا بحياة الإنسان في جانبها العملي و العلمي ،فإنها سوف "تضيف لقضية الصراع اللغوي سواء ما كان داخليا كالازدواجية اللغوية أو خارجيا كالثنائية اللغوية بعدا جديدا يصنف ضمن علم اللغة الاجتماعي الذي يشمل فضلا عن على ما تقدم دراسة الأقليات اللغوية ، ومظاهر الانحراف اللغوي و المقاربات اللغوية و التخطيط و نحوها "[14]

و قبل أن نعرج على خطر الازدواجية اللغوية و آثارها السلبية على اللغة ذاتها و على الفرد و المجتمع ،يحسن بنا أن نقف عند مفهومها و الآراء التي أثيرت حولها و رفع اللبس عن كثير من

المصطلحات و المفاهيم التي تتصل بها. فقد تباينت الآراء و اختلفت في وضع مفهوم دقيق و صارم لمصطلح الازدواجية ، و بدا هذا المصطلح في معظم الدراسات متداخلا مع مفهوم" الثنائية اللغوية ". و يعظم هذا الإشكال أكثر عند ترجمة هذين المصطلحين اللغويين ازدواجية اللغة Diglossia و ثنائية اللغة Bilingualism إلى اللغة العربية . فمصطلح Diglossia يتكون من سابقة يونانية Di ومعناها مثنى أو ثنائي مضاعف و gloss و معناها لغة، ولاحقة ia للحالة. فحاصل الترجمة صفة أو حالة لغة مثناة . و المصطلح Bilingualism يتكون من سابقة لاتينية Bi معناها مثنى أو مضاعف وlingual: لغوي و اللاحقة ism الدالة على السلوك المميز أو الحال أو الصفة و حاصل الترجمة : سلوك لغوي مثنى أومضاعف " الثنائية اللغوية" [15]. و بذلك يؤدي المصطلحان المعنى ذاته غير أن واقع الاستعمال على عكس ذلك إذ نجد أن لكل منهما معنى مغايرا ،وهذا الخلط و الاضطراب في تحديد المفهوم الذي بدا عند الغرب انتقلت عدواه بفعل الترجمة و النقل إلى اللغة العربية، و بدا في آراء الدارسين و اللغويين العرب بنفس درجة الاضطراب و الخلط .

و المؤكد في كل الحالات أن هناك "تباينا في استخدام اللغة منشؤه لغة أو لغات واحدة أحدثت صراعا بين اللغة الأم و هذه اللغات الوافدة من جهة ، ومن جهة أخرى فثمة تفرعات لهجية للغة الأم أحدثت صراعا بين مستويات اللغة نفسها نشأ عنها ما يعرف بصراع الفصحى و العامية لدرجة التبس الأمر معها ولم نعد نستبين أي الصراعين ثنائية لغوية و أيهما ازدواجية [16].

يرى نهاد الموسى في سياق حديثه عن العامية و الفصحى أنهما يمثلان في سياق اللغة العربية "مستويين بينهما فرق أساسي حاسم يتمثل في أن الفصحى نظام لغوي معرب ، أما العامية فقد سقط منها الإعراب بصورة شبه كلية "[17]. ومن هنا تبرز الازدواجية كشكل من أشكال الصراع اللغوي الداخلي أو التقابل اللغوي بين الفصحى و العامية ،تبرز فيه العاميات بوصفها تفرعات لهجية للفصحى مشكلة تعاني منها الفصحى عناء كبيرا [18].

و تشير أغلب الدراسات إلى أن أوّل من وضع مصطلح الازدواجية اللغوية هو الألماني " كارل كرمباخر سنة 1902 في كتابه المشهور "مشكلة اللغة اليونانية الحديثة المكتوبة " الذي اقترح فيه على اليونانيين ترك ازدواجيتهم الشرقية و اللحاق بالعالم الغربي بتبني العامية لغة قومية ،كما دعا العرب إلى ترك فصيح لسانهم ،وتبني إحدى اللهجات مفضلا المصرية لغة قومية [19]. ثم جاء بعده وليم مارسيه الذي وضعه بالفرنسية تحت مسمى La Diglossia، وكان ذلك عام 1930[20] معرفا إياه بأنّه : الصراع بين لغتين :لغة أدبية مكتوبة و لغة أخرى عامية شائعة [21]

وفي عام 1959 نقله شارل فرغسون إلى الانجليزية ودلّ به على نمطين مختلفين في اللسان الواحد معرّفا إيّاه بالقول : " حالة لغوية مستقرة نسبيا يوجد فيها فضلا عن اللهجات الأساسية المحكية التي تشكل نمطا أو عدّة أنماط تختلف باختلاف الأقاليم نمطا آخر من اللغة رفيع المستوى عالي التصنيف ، تكون نسبة كبيرة من المكتوب لعصور خلت في تلك اللغة بالمستوى العالي ، ويتعلمه الناس بطرق التعليم الرسمية و يستعملونه في معظم أغراض الكتابة و المحادثات الرسمية من دون أن يكون مستعملا من قبل الفئات المختلطة (العامة) للمحادثة العادية أو أغراض الحياة اليومية "[22]

و يظهر المصطلح من خلال التعريف بشكلين مختلفين في الاستخدام اللغوي للسان الواحد. يبدو من خلاله الأول محدود الاستخدام و ليس في المتناول ، فيما يبدو الثاني شائع الاستخدام و سهل التناول . نعني بالأول اللسان الفصيح الذي يستخدم في المناسبات الرسمية و الكتابة الأدبية و التعليم ،و الآخر اللسان العامي الذي يستعمل في الحياة اليومية . و هو ما " يشكل شرخا في مكونات عمليات التداول اللغوي اليومي ، فتجعل الكتابة بصفتها مظهرا لغويا طريق الفصحى و ميدانها ، وتجعل المشافهة و الحوار و التداول الخطابي بصفته المظهر اللغوي الآخر ، طريق العامية و سبيلها " [23]

ويحدد فرغسون للازدواج اللغوي شروطا لا بد من توافرها حتى تنشأ هذه الظاهرة في لغة ما : [24]

- توفر مادة أدبية كبيرة بلغة ذات صلة وثيقة باللغة الأصلية للمجتمع تجسد بعضا من القيم الإنسانية للمجتمع .
- –اقتصار الكتابة على نخبة محدودة في المجتمع .
- مرور فترة زمنية تقدّر بقرون عديدة على توفر الشرطين السابقين مع إمكانية إثبات أن امتزاج هذه الشروط الثلاثة قد حصل مئات المرات في الماضي ونتج عنه ازدواج لغوي .

و هي شروط لها وجود في تاريخ اللغة العربية بشكل يمكن القول معه إن الازدواج قد حصل في اللغة العربية عدة مرات على امتداد مراحل تطورها . ومن هنا ندرك أن الازدواج اللغوي ظاهرة موجودة في كل اللغات و ليست حكرا على اللغة العربية فقط ، ففي كل لغة لسان عامي و آخر فصيح . غير أن العربية واحدة من أكثر اللغات التي تظهر فيها الازدواجية اللغوية ضمن هذين التنوعين ، فتبدو في شكلين مختلفين : لغة أدبية مكتوبة أو لغة قياسية كلاسيكية ، لغة الأعمال الأدبية و العلمية و المقالات الإعلامية و الوثائق القانونية لكنها غير متداولة في لغة الحديث أو الخطاب اليومي ، و الشكل الثاني لغة شفهية ، هي لغة المحادثات المستعملة في كل الأمكنة تقريبا و لم تكن قط مكتوبة [25]

وإذا عدنا إلى تاريخ الازدواجية في اللغة العربية و بدايات المشكلة اللغوية نجد أن كثيرا من الدراسات تشير إلى ظهورها في العصر الجاهلي [26]، إلا أن واقع البحث و الدراسة يؤكدان أن الوضع اللغوي في العصر الجاهلي لم يهيئ بالقدر الكافي لحصول ازدواجية لغوية كما تشهدها اللغة اليوم ، لأن نمطي اللغة اللذين استخدمهما الجاهليون معربان [27]، حيث كان الجاهليون يستخدمون في لقاءاتهم خاصة في مواسم الحج و التجارة و أسواقهم لغة راقية يخطبون بها و يقولون بها الشعر ،و يستعملونها في أحاديثهم العادية ، فإذا رجعوا إلى قبائلهم استعملوا لغة أقل رقيا و لكنها معربة كما الأولى .

لذلك فإن أغلب الدراسات تتجه إلى اعتبار أن البذور الحقيقية للازدواجية اللغوية إنما تعود إلى عصور الفتوحات الإسلامية ، فعندما اختلط العرب بغيرهم من الممالك المفتوحة و الأمصار تناوشوا الممالك المفتوحة فتناوشتهم بتأثير لهجي لم يكن لهم محيص عنه [28]

بقي أن نشير انطلاقا من المفهوم الذي أوردنا للازدواجية اللغوية أنها لا تعني الثنائية اللغوية أو التعددية اللغوية، فإذا كانت الازدواجية بحسب ما تقدم تعني وجود مستويين أو نمطين للغة الواحدة :أحدهما مستوى اللغة الفصيحة الذي يستخدم في المناسبات الرسمية و التعليم و الكتابة الأدبية ، و الآخر مستوى اللغة العامية الذي يستعمل في الحياة اليومية ، فإن الثنائية اللغوية تعني " قدرة الفرد في التحكم في

لغة ثانية بسهولة مشابهة للتحكم في استعمال اللغة الأم "[29] ، ويعرفها جورج مونان بأنها " قدرة الفرد في استعمال لغتين أو أكثر "[30]

لذلك يمكن القول إن ازدواجية اللغة خاصة بالمجتمع و ثنائية اللغة خاصة بالفرد، لأننا عندما نتحدث عن ازدواجية اللغة فإننا نتعامل مع الأشكال اللغوية الموجودة في ذلك المجتمع بخلاف ثنائية اللغة التي تصف قدرة الفرد على التعامل مع أكثر من لغة ، أي أنها صفة لتصرف الفرد لغويا و طريقة لاستخدام اللغة من طرفه .في حين أن الازدواجية تعد من خصائص الاستخدام اللغوي في المجتمع .

و بإيجاز شديد يمكن أن نقول أن :" ازدواجية اللغة تتعامل مع أشكال اللغة الواحدة بينما تتعامل ثنائية اللغة مع لغتين مختلفتين " [31] .وهما في كل الحالات يمثلان : " وجهين متبادلين لمشكلة الصراع اللغوي الذي بدا ذا بعدين : أحدهما داخلي و يمثله صراع الفصحى مع العاميات المختلفة ، والثاني خارجي و يمثله صراع الفصحى مع اللغات الأجنبية الوافدة "[32]

وهو صراع ضارب بجذوره في أعماق ماضي اللغة لكنه لم يكن بالخطورة التي يشهدها واقع اللغة اليوم ،" حين راح يتحول إلى مشكلة حقيقة توشك أن تعصف بالمشترك الحضاري و العقدي للأمة جراء عصفها بلسان الأمة و تلاعبها به ،وهو ما بدا واضحا في مآل لسان الأمة هذه الأيام ، فقد طغت عليه العاميات و اللكنات الوافدة و التي توشك أن يكون للهيبها في عصر العولمة ضرام مؤذ فظيع، " [33]، إذ العرب اليوم لا يتكلمون اللغة العربية الفصيحة،و العامية هي المستعملة في أغلب حواراتهم بل امتدت إلى الرسمية منها ، وهي بحد ذاتها ليست واحدة مشتركة بل عاميات متعددة و مختلفة ، فلكل بلد عامياته فلا يفهم التونسي القطري و لا يفهم الجزائري العراقي ،بل إن أبناء البلد الواحد قد لا يفهمون بعضهم أو يتعذر عليهم التواصل بسلاسة و بساطة ، وبذلك فإن "مسألة الازدواجية في نطاق استخدامها تصبح أثرا بالغ الخطورة و على قدر عال و كبير من الأهمية ، ذلك أن العاميات أو التفرعات اللهجية كثيرة و متباينة، و التواصل عبرها أو من خلالها يكاد يكون بالغ الصعوبة ، وهو أمر يلقي بظلاله التفكيكية على نسيج المجتمع الواحد و الأمة الواحدة ، وقد يفضي إلى تباين ثقافي و تفاضل عرقي قد يوديان بوحدة نسيج الأمة و تآلفها و تعارفها . وفي ذلك ضياع الهوية و الثقافة و الدين "[34]، فضلا عن جملة من التداعيات و الآثار السلبية التي أفرزتها مشكلة الازدواجية اللغوية للغة العربية في حياة الفرد و المجتمع تمس جوانب أساسية وكثيرة في حياتنا و خطرها يتعاظم يوما بعد يوم ، وهي تداعيات تنطلق من ثنائية ضدية جوهرية مفادها أن الفصحى لغة العلم و الدين و العبادات و رمز للوحدة بين أبناء الأمة الواحدة و أبناء الأمة العربية. أما العامية فدليل الفرقة و التشتت و عدوّ لأي تقارب أو تواصل بين أبناء الأمة الواحدة و أبناء الأمة العربية قاطبة ، و نذير انهيار لكل منجزات الأمة و تعطيل لكل جهودها ، ودليل سلامة اللغة هو ألاّ يكون ثمّة اختلاف كبير بين لغة الخاصة و لغة العامة ، وكلما وقع العكس و اتسعت فجوة الخلاف بين الاثنين كان ذلك علامة على سقم اللغة .ثم إن " الفرق بين المجتمع المتكامل السليم و المجتمع المتنافر المريض هو في تقارب المستويات اللغوية في الأول و تباعدها في الأخير ، فتقارب مستويات التعبير اللغوي دليل على تجانس المجتمع و توازن طبقاته وحيوية ثقافته ،وتباعدها دليل على الانفصام الفكري في المجتمع "[35].

وفي مجتمعاتنا العربية نجد أن قرب العامية من الفصحى جعلها اللغة الثانية بعد الفصحى بالنسبة لمزدوجي اللغة، فالمتكلم يحاول تلافي عوائق التصريف و الإعراب فضلا عن كون العامية تحقق له من طلاقة اللسان و عفوية الأداء والاقتصاد في الكلام ما لم تحققه له اللغة الفصحى ، إذ يحاول إيصال أكبر عدد ممكن من المعلومات بأقل ما يمكن من جهد تعبيري ،وصارت اللغة " تكتسب الملكة فيها بالتلقين ، و إذا اقتصر هذا التلقين على صحة التعبير و جماله فقط ،و استهان بما يتطلبه الخطاب اليومي من خفة و اقتصاد في التعبير و ابتذال واسع للألفاظ تقلصت رقعة استعمالها وصارت لغة أدبية محضة "[36].

وهو ما وقع بالفعل في اللغة العربية إذ كان لاستعمال العامية فيها خطر كبير عليها لسهولة الأخيرة ومرونتها و قدرتها على استيعاب كل الألفاظ الأجنبية دون غربلة ،وهي ألفاظ لا هوية لها تتردد على كل الألسنة كما " أكد بعض الباحثين أن العاميات العربية أثر من آثار التخلف و الجهل ، وسمة من سمات الأمية و عامل من عوامل الفرقة ، ومعوق من معوقات انتشار التعليم و يقظة الوعي الوطني و القومي ، وهي متشعبة ومنقسمة إلى محليات متفاوتة من حيث مكوناتها و عناصرها ، ولكل منها معجمها المفرداتي المختلف عن المعجم الآخر .و لذلك لا يصلح أن تخاطب بها الأمة بكل فئاتها و طبقاتها وفي كل مواطنها وأقطارها "[37]

و الحديث عن واقع استعمال اللغة العربية في العصر الحديث مرتبط بجملة من المعطيات التي ينبغي الأخذ بها في الحسبان ، بدءا بمستعمل اللغة نفسه لأن الأفراد من هذه الناحية غير متجانسين باعتبار أصولهم و لغاتهم الأولى و لغة الأسرة ثم لغة المحيط الخارجي ثم لغة المدرسة ...[38].

وما من شك فإن من أهم أسباب اتساع فجوة الخلاف بين الفصحى و العامية هو ارتفاع نسبة الأمية في المجتمع .و في مجتمعنا العربي تنتشر هذه الظاهرة انتشارا رهيبا ، وهي نتيجة لقرون خلت من إهمال اللغة العربية زادها الاستعمار الأجنبي سوءا على سوء ،حين عمل على تجهيل الشعوب العربية وطمس معالم الهوية العربية ، فقد حارب هذا الأخير اللغة العربية في الجزائر وخاض ضدها حربا شرسة .

يقول الشيخ الإبراهيمي:" ...كان أعظم البلاء على من كان من الأمم في مثل حالنا ، نشقى ليسعد غيرنا، ونموت ليحيا سوانا ، و إذا حيينا فبدون حقوق ، و إذا متنا فبدون ثمرات الموت ،ثم لا ينتهي بلاؤنا عند هذا حتى يتناول أعز عزيز علينا هو ديننا و لغة ديننا ، هو القرآن و لغة القرآن "[39].

لذلك فإن مشكلة الازدواجية اللغوية تتعدد و تتنوع بتنوع انعكاساتها و آثارها السيئة على الفرد و المجتمع و الأمة على حدّ سواء .و تمتد أخطارها المدمرة إلى جميع مجالات الحياة ومستوياتها الثقافية و الفكرية و الاجتماعية و التعليمية ... " و ذلك نظرا لكون اللغة تشكل المهاد النفسي و القومي و المشاعري و الثقافي و الفكري للناطقين بها ، و الفصحى تحديدا هي لغة الدين و العلم ، هي الامتداد الثقافي و الفكري و الحضاري ، وقد شكلت على الدوام رمزا لوحدة أمتنا و أداة لتواصلنا و تآلفنا .و إحلال العامية محلها سيعمل على تفتيت هذه الوحدة وتمزيق هذا الرباط التآلفي و التعارفي ، و سيجعل من الأمة أمما شتى وأقواما متفرقين "[40].

و لعل من أبرز أخطار الازدواجية اللغوية ما تؤثر به على العملية التعليمية ، وهو خطر له انعكاساته بدوره على جوانب كثيرة من حياة المتعلم نفسه حيث ربط الكثير ممن تناولوا الوضع الازدواجي للغة بين هذا

الوضع و انتشار الأمية في الوطن العربي، مستندين في ذلك إلى الصعوبة التي يلقاها الطفل في التعلم مستخدما اللغة الفصحى التي تختلف عن حديثه العامي الذي يخاطب به من حوله في البيت و الشارع ... و أمضى سنوات عديدة من عمره في اكتسابه وفي إثراء رصيده منه، " فتبدو الفصحى غير مألوفة لديه وغير متاحة كذلك، إذ يعمد الطفل عند تعلمه الفصحى إلى مخزونه اللغوي و الثقافي و الذي تشكل عبر سنوات عديدة من المحاكاة في اكتساب العامية،فلا يجد ما يسعفه في الممارسة اللغوية الجديدة بالفصحى فيضيق ذرعا بها و يرغب عنها إلى غيرها من العاميات المتاحة أو اللغات الأجنبية التي قد يحرز تفوقا ملحوظا بها "[41].

هكذا يشكل الازدواج اللغوي عائقا أمام الطفل لتعلم العربية الفصحى و تقع عليه أسباب عزوف الطفل عن تعلمها ، و لولا هذا الازدواج لأمكن لهذا الطفل تعلم اللغة العربية بكل يسر ، و لا ساوره هذا الإحساس الذي " يخلق عنده نفورا من هذه اللغة التي تفرض عليه فرضا و يقدم على أمرها وكأنه شر لا بد منه ، وهذا يوجب عليه أن يبذل مجهودات مضنية في تعلمها وإهدار وقت طويل في محاولة الترجمة بين الفصحى و العامية، لأنه يلجأ إلى مخزونه اللغوي من العامية يستعين به عند الإجابة أو الكتابة "[42]، مما يؤدي إلى ضعف التحصيل لدى الطفل وصعوبة الفهم فضلا عن بعض الآثار النفسية الخطيرة التي تجعل الطفل " يعيش حالة من التشظي و التردد بين العامية و الفصحى ، عامية لا يحسن التفكير عبرها لخلوها من الأنماط الفكرية الإبداعية واقتصارها على تيسير الحياة اليومية الاعتيادية و النشاط الذهني العادي ، و فصحى لم يتقنها ليقوى على التفكير من خلالها ...وهل يتوقع منه الإبداع مهما كثر علمه و زادت ثقافته ما لم يكن متقنا للغة ؟"[43] . و يقع الطفل إلى جانب ذلك كله بين مدّ و جزر في إجاباته وبين حيرة و تردد في فهمه للتعبيرات و الجمل التي ترد على مسامعه متعذرا عليه اختيار اللغة التي يود استعمالها غير واثق فيما يقول غير مطمئن لتعبيره وتركيبه و سريع التراجع عن إجاباته ، " مما يؤدي إلى ضعف المستوى اللغوي وقتل الإبداع بكل أنواعه ،فالشخص الازدواجي الذي يعيش حالة من التردد و الحيرة لن يكون مبدعا ، إذ الإبداع يتطلب إتقانا تاما للغة بالسيطرة على ألفاظها ومعانيها و المقدرة الفائقة على التصرف في استخدام صيغها و تراكيبها "[44].

ومن هنا ندرك ما للازدواجية اللغوية من خطر على حياتنا الفكرية التي أساسها العملية التعليمية خصوصا ، وأن زمن الانتقال من العامية إلى الفصحى و هو انتقال من لغة إلى أخرى يتطلب وقتا طويلا ومتباينا من فرد إلى آخر ، و هو ما يفسر حالة الانفصام في الأداء الفكري للمجتمع العربي ، وهو ما يجعل كذلك من تلك الظاهرة السيئة " السبب الوحيد في تصدّع البنية الثقافية لأمتنا كما أنها المسؤولة عن هذا التبديد القاتل لكل جهودنا ومجهوداتنا التربوية ،ويجعل منها عدوا لكل تطور فكري وحضاري "[45].

ذلك أنه حين تزداد الهوّة بين الفصحى و العامية و يتعاظم الشرخ بينهما و ينفصلان، تنقطع العلاقة بين الجذور الثقافية للأمة وأجيالها القادمة مما يؤدي إلى انفصام ثقافي أو انسلاخ كلي عن الثقافة الأصلية للأمة، لأن الازدواجية على حدّ تعبير نهاد الموسى هي جرثومة الانفصام و العذاب المقيم في وجدان الكاتب العربي الذي يتوزع في معالجة قضيته بين محورها المحلي و أفقها العربي[46] ،" فما أكثر عيوب تلك

اللهجات ومساوئها وفي مقدمتها أنها عاجزة عن تكوين تلك الوحدة فلكل قطر لهجته ومميزاته التي تجعل منها أداة غير صالحة للتفاهم في أمة تسعى لتحقيق وحدتها اللغوية "[47].

وفضلا عن ذلك كله فإن هذا الازدواج اللغوي من شأنه أن يعمل على تضييق الخناق على الفصحى، " ويحول دون انتشارها داخليا وخارجيا .إنّه يوقف مدّها ويقضي على أي حوار قد يُدار بها أومن خلالها جرّاء عدم اكتمال القدرة على استخدامها أو التفكير من خلالها سواء على المستوى الداخلي بين أفراد الأمة أو على المستوى الخارجي خارج حدود الأمة ومن خلال الحوار مع الآخرين ، فيمنع الفصحى من أي امتداد خارج حدودها ويحول دون أن تكون عالمية ممتدة أو أن تكون لغة العلم و التفكير و الكشف و الإبداع "[48]

ولأن الأمة العربية منقسمة إلى دول عديدة ولكل دولة حدودها وسياساتها وعلاقاتها الخاصة فإن هذا الانقسام أدّى إلى انفصام وحدتها الفكرية و اللغوية و الشعورية ، وخلّف في تلك المجتمعات تباينا فظيعا فلكل شعب منها عاداته وأعرافه و تقاليده و نظامه اللغوي الذي يتميز عن باقي الأنظمة الأخرى ، و قد أدّى هذا إلى " انفراط عقد النسيج العربي الواحد أو الأمة الواحدة و بناء أنسجة اجتماعية متعددة تبتعد مع الزمن عن أخواتها العربيات لتصبح غيرها "[49] .وهو ما يسعى إليه الاستعمار الأجنبي على مدار عصور طويلة الأمد و لا يزال يسعى إليه أعداء العربية و الإسلام الذين يكيدون لهذه الأمة العربية و يحاولون زرع الفتنة بين أبناء المجتمع العربي الواحد بشتى الوسائل المشروعة وغير المشروعة ، و قد فعل مثل ذلك الاستعمار الفرنسي في الجزائر حين راح يكيد للغة العربية و يشوّه صورتها داعيا إلى إلغائها وإحلال الفرنسية محلّها ، فطغى على لغة الجزائري ازدواجية الفصحى و العامية من جهة فضلا عن ثنائية الفرنسية و العربية من جهة أخرى ، و قد ضربت هذه المشكلة أعماق الثقافة العربية في الجزائر في الصميم وخلخلت أوصال الفكر وجذور المشاعر العربية و الوجدان الإسلامي، لأن العلاقة بين اللغة و الفكر و الثقافة وطيدة فلو تأملنا الفكر و اللغة وجدنا أن كل واحد منهما يؤثر في الآخر و يتأثر به .و اللغة في نشأتها تخضع إلى مدى بعيد للنشاط الذهني أو الميول و الاتجاهات النفسية، و للفكر نصيب ملحوظ في حفظ اللغة و الإبقاء عليها ، وأثر في نهضة اللغة و نموّها إذ لولا تجدّد المعاني و تباينها ما تجددت الألفاظ و لا تنوعت التراكيب ، و لولا عمق الفكرة وتحدّدها ما كانت دقة اللفظ وتخيّره. ثم إن ثروة اللغات تتفاوت فيما بينها تبعا لنشاط الحياة الفكرية وتقدم العلوم و الفنون [50]. فاللغة إذن من أكبر مقومات الفكر و الثقافة، و أعظم مرتكزاتها ومكوناتها الأساسية ، إذ لا يتصور وجود ثقافة دون لغة أو خارج اللغة لأن هذه الأخيرة تظل على مرّ العصور مخزنا للثقافة والازدواج اللغوي يهدد هذا المخزون الثقافي [51] ، و يلقي بظلاله البائسة على التكوين الاجتماعي و النفسي للأفراد، و ينفث سمومه على العربية الفصحى و على الفرد و المجتمع و على الأمة كلها ، ذلك أن العامية وبخلاف الفصحى لا يمكن لها "أن تفي بحاجات الأمة .إنها أنماط هزيلة لا تستطيع أن تزوّد الفرد بما يحتاج إليه من ألفاظ و أساليب تعبير في حواره أو فيما يكتب ...كما أنها تغلب عليها الإقليمية الضيقة و العنصرية البغيضة"[52] . ثم أنه على فرض أن اللغة العامية تفي بحاجات التخاطب الاجتماعي العادي فإن ذلك يظل محدودا بحدود جغرافية ضيقة تمثل حدود البيئة المحلية التي يعيش فيها الفرد ، و إن تعدّت ذلك فإلى حدود الإقليم الجغرافي الواحد في أكثر الحالات

فضلا عن كون تلقيها خارج بيئتها الخاصة سيظل محدودا فقط في مجال التخاطب المسموع أو في مجال التخاطب المكتوب، فلا يكون الأمر مقبولا إلا في حالات نادرة و في البيئات المختلفة فكريا و ثقافيا في الغالب . أما في مجال التعبير عن قضايا الثقافة و الفكر و الفلسفة فإنها تقصر وتضيق، ومن هنا يتضح المآل الذي ينتظر الفصحى لو كتب للعامية أن تنتصر و للفصحى أن تندثر إذ سيؤدي ذلك إلى تمزق الأمة العربية و تلاشيها و انقسامها إلى أمم متناحرة و قبائل متصارعة [53].

إن الازدواجية رمز كل تخلف فكري و حضاري و عائق أمام كل تطوّر اجتماعي و اقتصادي و ثقافي ، وحائل دون قيام أجهزة الإعلام و الاتصال و الصحافة بدورها في مجال التنمية الثقافية و الاجتماعية و الفكرية .إنها رمز لكل صراع حضاري وكل صراع اجتماعي طبقي . و الأمة الواعية هي التي تنسجم طبقاتها وتتكامل فيما بينها وتتبادل الأدوار بوعي و انسجام ، وهي أدوار وليدة عقلية واحدة وذهنية واحدة وموهبة و استعداد فطري واحد، فإذا فكر كل فرد بلغة ما و تكلم بها ،وخالف المثقف في لغته كلام العامي و لم يتكلم الفرد بلغة شعبه التي تعارف عليها أفراده وأحس بها كان ذلك مجلبة لكل تصدّع في صرح الأمة ومدعاة لكل انهيار اجتماعي ، ما يترتب عليه فشل كل محاولة لإصلاح في جانب من جوانب الحياة و نهوض بالمجتمع .

الهوامش:

[1] –محمود تيمور ، لغة المجتمع ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ع 18 ،مطبعة وزارة المعارف العمومية ،القاهرة ،1953،ص19

[2] –إبراهيم مدكور ، الفكر و اللغة ، مجلة مجمع اللغة العربية ،ع 18،ص11.

[3] – نفسه ، ص9

[4] –إبراهيم كايد محمود ، العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية و الثنائية اللغوية ، المجلة العلمية لجامعة الملك فيصل للعلوم الإنسانية و الإدارية ، مج 3، ع1، مارس 2002، ص54

[5] –نفسه ، ص54

[6] –محمد فريد أبي حديد ، موقف اللغة العربية العامية من للغة العربية الفصحى ، مجلة مجمع اللغة العربية ، مطبعة وزارة المعارف العمومية ، ع7، 1953، ص6

[7] –نفسه ، ص205

[8] –نفسه ،ص206-207

[9] – إبراهيم كايد محمود ،العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية و الثنائية اللغوية ، ص54

[10] نفسه ، ص54-

[11] –نفسه ، ص55

[12] – عباس المصري و عماد أبو حسن ،الازدواجية اللغوية في اللغة العربية ،مجلة مجمع اللغة العربية ،ع08، 1014 ،ص38

[13] –نفسه ، 38

[14] –نفسه ، ص38

[15] – نفسه ، ص55

[16] –نفسه ، ص41

[17] – الموسى نهاد ، الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة ،دار الشرق ، عمان ،ط1، 2003، ص125

[18] –نفسه ، ص41

[19] –الزغول محمد راجي، ازدواجية اللغة ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ، 1986، ص95

[20] -نفسه ، ص120

[21] - نفسه ص121

[22] - ستيتية سمير ، ندوة الازدواجية في اللغة العربية ،ط1، مجمع اللغة العربية الأردني ، الجامعة الأردنية ، 1987، ص122

[23] - عباس المصري ، الازدواجية اللغوية في اللغة العربية ،مجلة مجمع اللغة العربية ،ع8ص42

[24] إبراهيم الكايد ، العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية و الثنائية اللغوية ،ص68

[25] - عباس المصري ، الازدواجية اللغوية في اللغة العربية، ص48

[26] - سعيد نفوسة زكريا ، تاريخ الدعوة إلى العامية و آثارها في مصر ، دار نشر الثقافة ، الإسكندرية ، ط1،1964، ص3،4

[27] - مهى محمد العتوم ، الازدواجية في الأدب ، نماذج شعرية تطبيقية ، مجلة اتحاد الجامعات العربية للآداب ، مج4، ع1، 2007، ص168

[28] - نهاد الموسى ، الثنائيات في قضايا اللغة العربية من عصر النهضة إلى عصر العولمة ،ص86

[29] - Bloomfield Leonard, Langage, Compton Printing,London,1933,p65

[30] - Georges Mounin Dictionnaire de la Linguistique,PUF,Paris, 1993,p64

[31] - إبراهيم كايد محمود ، العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية و الثنائية اللغوية، ص60

[32] - عباس المصري ، الازدواجية اللغوية في اللغة العربية ،ص39

[33] نفسه ، ص39

[34] - نفسه ، ص38

[35] -رحمون حكيم ، مستويات استعمال اللغة العربية بين الواقع و المأمول ، ماجستير اللغة و الأدبي العربي ، النحو العربي ، جامعة مولود معمري تيزي وزو ،2011، ص2

[36] - عبد الرحمان حاج صالح ، اللغة العربية بين المشافهة و التحرير ، مجلة مجمع اللغة العربية المصري ، القاهرة ، 1990، ع66،ص118

[37] -رحمون حكيم ، مستويات استعمال اللغة العربية بين الواقع و المأمول ،ص105.

[38] -نفسه ، ص49

[39] -محمد البشير الإبراهيمي ، عيون البصائر ، ص286.

[40] -عباس المصري ، الازدواجية اللغوية في اللغة العربية ،ص55

[41] -نفسه ، ص57

[42] -إبراهيم الكايد ، العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية و الثنائية اللغوية ،ص61

[43] -عباس المصري،الازدواجية اللغوية في اللغة العربية ،58

[44] - إبراهيم الكايد، العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية و الثنائية اللغوية ،ص71

[45] -نفسه ،ص71،72

[46] - عباس المصري ، الازدواجية اللغوية في اللغة العربية ،ص57

[47] -محمد رضا الشبيبي ، مجلة مجمع اللغة العربية ، ج9،المطبعة الأميرية ،1957، ص72

[48] - عباس المصري ، الازدواجية اللغوية في اللغة العربية، ص58

[49] - نفسه ، ص51

[50] -إبراهيم مدكور ، الفكر و اللغة ، مجلة مجمع اللغة العربية ،ص8،9

[51] - عباس المصري ، الازدواجية اللغوية في اللغة العربية ،ص56

[52] - إبراهيم الكايد ،العربية الفصحى بين الازدواجية اللغوية و الثنائية اللغوية ،ص75

[53] -نفسه ، ص65